المحاضرة الرابعة:نظرية المعرفة عند ابن خلدون

1-حياة ابن خلدون :

وُلد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي، المعروف بابن خلدون، في تونس عام 1332م لأسرة عربية مرموقة من بني خلدون تعود جذورها إلى حضرموت. حظي ابن خلدون بالتعلم على يد أفضل المعلمين في المنطقة بفضل مكانة أسرته الرفيعة. وبعدما أتم ما يتعلمه أهل عصره في العلوم التقليدية، تقلّد مناصب عليا في بلاط سلاطين شمال إفريقيا وإسبانيا. ولمّا بلغ العشرين -في ظل الاضطرابات الحاصل بين الأسر الحاكمة وداخلها- بدأ حياته العملية بشغل منصب كاتب السر لدى السلطان الحفصي في تونس، لكن سرعان ما انتقل إلى العمل لدى منافسه المريني. أقام ابن خلدون في فاس ما يقرب من عشر سنوات حيث كان يتولى التفاوض مع القبائل البدوية في شمال إفريقيا نيابة عن المرينيين. وقد كان يستمتع بالدسائس والمؤامرات التي تُحاك بين أفراد الأسرة المرينية الذين كانوا في صراع دائم على السلطة. قضى ابن خلدون عامين في السجن (1357- 1359) بسبب تآمره مع أمير حفصي حاول أن يستعيد الحكم، ولم يُطلق سراحه إلا بعد وفاة السلطان المريني أبي عنان، حيث عينه السلطان الجديد أبو سالم في مناصب عليا من بينها خطة المظالم. وفي عام 1361م، قُتل السلطان وسُمح لابن خلدون بالخروج من فاس بأمان بشرط أن يغادر شمال إفريقيا نهائيًا.

استقبل السلطان محمد الخامس (حكم من 1354م-1359م و1362م-1391م) ابن خلدون بحفاوة في بلاطه النصري في غرناطة. وفي أثناء إقامته بغرناطة أُسند إليه واجبات متعددة، منها أنه كان سفيرًا إلى بيدرو القاسي في إشبيلية عام 1364م. إلا أنه سرعان ما غادر غرناطة بسبب خلافات غامضة بينه وبين الوزير ابن الخطيب ذي النفوذ، فعاد إلى بجاية وعُين حاجبًا للأمير الحفصي أبي عبد الله الذي قتله الثوار بعد مرور عام. وعلى مدى الأعوام التسعة التالية جاب ابن خلدون وسط وغرب شمال إفريقيا وعمل على توطيد علاقاته مع البدو. وهنا أدرك الاختلافات الأساسية بين حياة الترحال وحياة الاستقرار، وبين المناطق الريفية والمدن. ثم ضرب عزلة على نفسه في قلعة بربرية، حيث ألّف المقدمة (تمت في نوفمبر 1377م) وأجزاء من كتاب العبر.

وفي عام 1383م، رحل ابن خلدون من تونس وقصد مصر سعيًا إلى حياة أهدأ يتفرغ فيا للتدريس والتأليف. وفي عام 1384م، عُين قاضي قضاة المالكية، لكن ذُكر أنه كان قاضيًا

صارمًا، الأمر الذي أثار العديد من النزعات والصدامات والمؤامرات، بالإضافة إلى إقالته عدة مرات. توفي ابن خلدون في القاهرة عام 1406م.

علم العمران :وضع ابن خلدون في المقدمة الأسس النظرية والمنهجية لمختلف ميادين المعرفة، وفي مقدمتها علم العمران. كان اهتمامه منصبًا على صعود مختلف الدول الإسلامية في شمال إفريقيا وسقوطها. وقد قدّم تفسيره البسيط والعميق لمفهوم "العمران" بتركيزه على ما رآه اختلافات جوهرية في البنية الاجتماعية بين المجتمعات البدوية (العمران البدوي) والمجتمعات الحضرية (العمران الحضري). استخدم ابن خلدون مصطلح العمران للإشارة إلى أي تجمع بشري يتجاوز حد الكفاف، وقسمه إلى نوعين: العمران البدوي وهو القائم على الضروريات، والعمران الحضري الذي ينشأ عن إنتاج الكماليات. اعتقد ابن خلدون أن زيادة الأمن والحرية يزج بالناس إلى التنافس والأنشطة المرتبطة بالنمو والإنتاج الاقتصادي، ما يؤدي إلى نمو العمران وازدهاره، فتُجدَّد المدن القديمة وتشيَّد أخرى جديدة. وبناءً على ذلك، تصور أن العمران ثمرة التقدم المادي والنمو الاقتصادي، فهي عملية تدريجية مستمرة يحققها البشر بصورة طبيعية من خلال التعاون والسعي. وكلما اتسع نطاق التعاون وزاد عدد البشر المساهمين فيه، نشأ عمران أوسع وأعظم .

يرى ابن خلدون أن نشأة العمران تبدأ بـ "العصبية"، وأن الجماعات ذات العصبية القوية تتمكن من إقامة حكمها على الجماعات ذات العصبية الضعيفة. وفي الوقت ذاته، لا بد أن توجَّه العصبية بالشريعة حتى يكون العمران راسخًا. افترض ابن خلدون أن الدين يمد العصبية بقوة إضافية ويجمع الناس تحت لواء قيادة واحدة .وعليه خلص إلى أن نشأة العمران هي ثمرة التناغم بين العقل والدين.

إن العمران في فكر ابن خلدون في حالة تغير دائمة، حيث يتحول من طور بدائي إلى حالة متقدمة أو في تطور دوري، فقد رأى أن كل قبيلة تمر بدورة تبدأ بالترحال وتنتهي بالحياة الحضرية المستقرة، ثم تتكرر الدورة. وبمجرد قيام الدولة فإنها تسير -كالكائن الحي- وفق قانون طبيعي لا مفر منه من النمو والنضج والاضمحلال. وفقًا لابن خلدون، تكون كل مرحلة متقدمة ثقافيًا أكثر من سابقتها، لكنها أضعف سياسيًا من حيث سلطة الدولة وقوتها. كما أشار إلى أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر، فقد اتصف البدو بالشجاعة والإقدام والحرية والأخلاق الحميدة والتدين. بينما تجسد المدينة المرحلة الأخيرة من حياة

الدولة وعمرانها، ورأى ابن خلدون أن سكانها كانوا يميلون إلى الخداع، وعجزوا عن صون الوحدة والتضامن، وبسبب حياتهم المستقرة أدمنوا على الترف والدعة

2-نظرية المعرفة عند ابن خلدون

تقوم نظرية المعرفة عند ابن خلدون على واقعية تجريبية تربط المعرفة بالعمران البشري، معتبرة أن العقل أداة محدودة القدرات، تُنتج معرفة يقينية فقط في إطار المادة والظواهر المحسوسة، ولا تتجاوزها إلى الغيبيات، ويشكل الوحي مصدراً مستقلاً للمعرفة الدينية .ركز ابن خلدون على الخبرة، والملاحظة، والتعلم كصناعة، ورفض الفلسفة الإلهية التي تزعم قدرة العقل على إدراك ما وراء الطبيعة .

قسم ابن خلدون المعرفة إلى ثلاثة أنواع رئيسية في "مقدمته"، ترتكز على مصادر اكتسابها: المعرفة العقلية المبنية على الحس والتجربة (للأمور المادية)، والمعرفة النفسانية النبوية (المستمدة من الوحي)، والمعرفة الرياضية/الحدسية (للمتصوفة والكهان). كما صنف العلوم إلى علوم نقلية (دينية) وعلوم عقلية (طبيعية وإنسانية) .

2-1 أنواع المعرفة عند ابن خلدون:

- **المعرفة العقلية** :ترتبط بعالم الواقع والمحسوسات، وتُكتسب عبر العقل، الحواس، والتجربة، وتستخدم في شؤون الدنيا والمعاش.
- **المعرفة الروحية** :نوعان، أولهما خاص بالأنبياء عبر الوحي، وثانيهما يختص بالمتصوفة والكهان وأصحاب الرؤى الصادقة عبر الرياضة والنفس.
- **المعرفة التاريخية** :يرى ابن خلدون أنها "وعاء المعارف" ومعرفة الفطرة، وهي أساس فهم طبيعة المجتمعات والاجتماع الإنساني .

2-2تصنيف العلوم (العلوم العقلية والنقلية)

1. **علوم نقلية** :وهي العلوم التي يُستفاد فيها من الوحي، مثل القرآن، التفسير، الحديث، والفقه.

2-**علوم حكمية (عقلية)** :العلوم التي يمكن للإنسان أن يكتسبها بفكره، مثل المنطق، الفيزياء، الرياضيات، والطب .

يرى ابن خلدون أن العقل محدود بعالم المادة ولا يمكنه تجاوز المعرفة ما وراء الطبيعة.

تقوم المعرفة عند ابن خلدون على أساس تجريبي وعقلاني واقعي، حيث يربطها بالظواهر الاجتماعية والقدرة على فهم طبائع الأحوال في العمران. يرى ابن خلدون أن المعرفة تتكون من مكوّن مادي (بيانات) وآخر غير مادي (استعداد ذهني)، معتبرًا أن العقل أداة محدودة لا تدرك إلا المحسوسات، بينما يختص الوحي بما وراء المادة. ويؤكد أن التاريخ علم له قواعد، وباطنه "نظر وتحقيق" وليس مجرد قصص .

3-أهم ركائز المعرفة عند ابن خلدون:

- **منهج الاستقراء والواقعية** :لا يبني ابن خلدون معرفته على التجريد الفلسفي، بل على دراسة الواقع الاجتماعي ("العمران البشري") وتطبيق منهج علمي يعتمد على التجربة والتحليل) استقراء طبائع الأحوال
- **العقل كأداة حسيّة** :شبه ابن خلدون العقل بميزان دقيق لا يزن إلا ما يوضع فيه من معادن (المحسوسات)، ورفض قدرة العقل على إدراك الغيبيات، مهاجمًا الفلسفة "الإلهية" التي تحاول تجاوز حدود الحس.
- **المعرفة والاجتماع البشري** :المعرفة نتاج لضرورة المعاش والاجتماع؛ فالعمران البشري وتطور الحضارة (من البداوة إلى التحضر) هما أساس نشأة المعارف والعلوم.
- **الوحي ومكانه** :اعتبر ابن خلدون أن الغيبيات (الجنة، النار، الحشر) هي من اختصاص الوحي فقط، والعقل لا يستطيع الوصول إليها.
- **التميز بين الظاهر والباطن** :يرى في كتابه "المقدمة" أن المعرفة التاريخية السطحية (سرد الأخبار) يجب أن تتطور إلى معرفة علمية (تحقيق وتحليل) للوقوف على "علل" و"أسباب" الأحداث .

باختصار، المعرفة عند ابن خلدون هي **معرفة وظيفية، و اقعية، ومرتبطة بضرورة العيش،** تجعل من العقل وسيلة لفهم "قوانين العمران" والسياسة .

4-أبرز معالم نظرية المعرفة لدى ابن خلدون:

- **الواقعية والتجريبية** :المعرفة تستمد من الواقع والخبرة المباشرة، والعقل يزن الأمور بميزان المحسوسات.

- **حدود العقل** :شبه العقل بميزان دقيق، لكنه لا يعطي نتائج إلا إذا وُضع فيه "ذهب" (مادة محسوسة)، أما استخدامه في الماورائيات فهو باطل.
- **التعليم صناعة** :يؤمن ابن خلدون بأن التعليم أثر يتركه العقل في النفس، ويكسبها ملكة فكرية وتجارب جديدة، مما يسهل قبول معارف أخرى.
- **رفض الفلسفة الميتافيزيقية** :هاجم الفلسفة التي تحاول تطبيق العقل على ما وراء الحس، داعياً إلى قصر العقل على شؤون الدنيا وتنظيم المجتمع.
- **العلم والمعرفة** :اعتبر أن العلم هو الفهم والوعي، وأن المعرفة نتاج حركي للعمليات والخبرة والمهارات.
- **المنهج الاستقرائي** :تميز منهجه بجمع الظواهر الاجتماعية، وتحليلها، واستخلاص النتائج منها (منهج استقرائي)

لقد فككت دراسة الدكتور علي الوردي نظرية المعرفة عند ابن خلدون في سياق ثنائيات: المثالية والواقعية، الحق والقوة، والعقل والدين، مؤكدة على أصالة فكره وعصريته .
أحدث ابن خلدون ثورة معرفية بنقله التاريخ من مجرد سرد أخبار وظواهر إلى علم دقيق يعتمد على التعليل، النقد، وفهم طبائع العمران. أسس لفلسفة التاريخ من خلال ربط الوقائع بأسبابها الاجتماعية والسياسية (العصبية والبدوي/الحضري)، معتبراً أن التاريخ في باطنه "نظر وتحقيق" وليس مجرد حكايات .

5-التاريخ عند ابن خلدون (بين الظاهر والباطن)

- **ظاهر التاريخ** :سرد للأيام والدول، أخبار الملوك والأمم السابقة.
- **باطن التاريخ** :هو "علم" يتضمن تعليلاً دقيقاً للكائنات ومبادئها، ومعرفة بكيفيات الوقائع وأسبابها.
- **المنهج النقدي** :اعتمد على "مطابقة الأحوال" مع طبائع العمران البشري، لتمييز الممكن من المستحيل في الروايات .

6-المعرفة والمنهجية عند ابن خلدون:

- **المعرفة كعلم** :يرى ابن خلدون أن العلم هو "الفهم والوعي"، ويربط بين المعرفة والملكة.

- **المنهج الاستقرائي** :أسس لعلم الاجتماع (العمران البشري) من خلال ملاحظة الواقع التاريخية واستخلاص القوانين العامة التي تحكم تطور الدول.
- **فلسفة التاريخ** :تجاوز ابن خلدون نقل الأخبار إلى "تعليلها" وتقديم تفسير وضعي للأحداث، متجنباً الخرافات من خلال فحص طبيعة المجتمع .

7-أهمية التاريخ والمعرفة:

- **فهم أطوار الدول** :دراسة التاريخ تكشف عن كيفية تقلب الأحوال وعمران الأرض.
- **أداة للسياسة** :تمكن المعرفة التاريخية من فهم أحوال الأمم وأثر الاستبداد أو الساسة في انهيار العمران .

باختصار، يعتبر ابن خلدون مؤسس "علم التاريخ" كعلم اجتماعي عقلاني يربط بين المعرفة التاريخية وفلسفتها .

8-المعرفة و العمران البشري عند ابن خلدون

أسس ابن خلدون علم "العمران البشري" (علم الاجتماع) كمعرفة علمية مبنية على ملاحظة تطور المجتمعات من البداوة إلى الحضارة، محددًا "العصبية" والتعاون كأساس لاستمرار الدول، وربط ازدهار المعرفة والعلوم بنمو الحضارة، وتراجعها بخراب العمران. يرى أن قوانين التاريخ والاجتماع حتمية، تشبه دورة حياة الإنسان (ميلاد، نضج، انحلال)

9-أهم ملامح المعرفة والعمران عند ابن خلدون:

مفهوم علم العمران (السوسيولوجيا):

هو دراسة الاجتماع الإنساني، وما يلحقه من أحوال كالملك، والترف، والعمل، والصنائع، والعلوم. يهدف إلى تمييز الحق من الباطل في الأخبار التاريخية عبر تطبيق "البرهنة" العقلية.

أساس العمران (العصبية :(يرى ابن خلدون أن الاجتماع البشري ضروري لتلبية الحاجات، وتقوم الدولة على أساس "العصبية" (الرابطة الاجتماعية/الولاء) التي تمكن الجماعة من فرض حكمها وتوفير الأمن.

دورة حياة الدولة :تمر الدول كالكائن الحي بمراحل: التأسيس، والنضج، ثم الترف والانحلال (الخراب)

10-العلم والمعرفة في السياق العمراني:

الارتباط بالحضارة :العلوم والتعليم أمران أساسيان يزدهران بازدهار العمران الحضري.

تطور المعرفة :المعرفة نتيجة للعمل والجهد الجماعي، وتتطور مع تطور الحاجات البشرية والرفاهية.

دور التعليم :يرى أن العلم يزدهر في المدن (العمران الحضري) ويحتاج إلى صناعة وتدريس لتنتقل الملكة التعليمية.

منهج البحث (المعرفة العلمية) :التزم ابن خلدون بمنهج علمي يقوم على الملاحظة الدقيقة، المقارنة بين الماضي والحاضر، وتحكيم العقل والواقع في الأخبار، وعدم قبول الأخبار التاريخية دون فحص طبائع العمران .

11-خصائص المجتمع عند ابن خلدون:

1. **ضرورة الاجتماع** :الإنسان مدني بالطبع ولا يعيش وحيدًا.
2. **العمل والتعاون** :العمران لا يقوم إلا بالجهد المشترك.
3. **التغير الدوري** :لا تدوم أحوال الأمم على وتيرة واحدة، بل تتغير.
4. **ثنائية البدو والحضر** :تمثل التناقض الأساسي بين الشجاعة والترف .

خلاصة :المعرفة عند ابن خلدون ليست منفصلة عن الواقع، بل هي أداة لفهم القوانين الطبيعية التي تحكم الاجتماع البشري. يعتبر ابن خلدون سباق لفهم التلازم بين تطور الدول وتطور المعرفة.